مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً مؤقتاً

السنة الأولى - العدد الأول

1395 - 1394 - 1393

1985 - 1984

تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

محمد ﷺ في مرآة الغرب

مصطفى نصر المسلاّتي

عندما بدأ « لامرتين » رحلته نحو الشرق ، كان قد تسلح بمشاعر عنيفة أطلقها في وجه الغرب حيث أثمرت قصيدة [وداع] التي رمز فيها الى كل الأشياء التي أراد أن يقوم بها وأن [رحلة إلى الشرق هي مثل فعل جليل من أفعال حياتي الداخلية][1] .

هذا الإعلان المكشوف الذي أطلقه لامرتين نجد له جذوراً عميقة يمكننا أن نعتبرها حماسة مسيحية منقطعة النظير ، تنم عن ازدياد « الرومانسية » وتناميها ، هذه المشاعر الرومانسية التي اندفعت نحو الشرق في مغامرات معروفة من أجل اكتشاف المجهول ، ومعرفة ذاك « الآخر » بوصفه قوة تحيط بها الأسرار من كل جانب . ولطالما اعتبرت « الرومانسية » الغربية التي سلكت طريق الحاجّ لاكتشاف ذاك [العدو] الآخر الساحر والأخاذ أن [ما مدّ] الذي ظهر أيام الأمبراطور [هرقل] وادعى أنه نبي Pseudo - Prophet عدو يجب محاربته .

وإذا كان لامرتين الذي غامر مندفعاً نحو الشرق مؤكداً أن [هذه الأرض العربية هي أرض المعجزات ، كل شيء يزدهر هنا ، وكل رجل ساذج أو متعصب يمكن أن يصبح بدوره نبياً] كان يهدف من وراء ذلك [نقل حقيقة الأرض المقدسة] تحت تأثير أن رومانسيته سوف تحقق له النبوة بمجرد وصوله إلى كنيسة القيامة ، فإن الحقائق المجردة أنه ليس [لامرتين] وحده كانت تراوده الأحلام المزهرة ، لا ليكون نبياً بمجرد أن يطأ الشرق بقدميه ولكي يزور كنيسة القيامة ، وإنما كان حلمًا نابوليونياً ، شب وترعرع في خيال وضمير الرأي العام الأوربي قبل الحروب الصليبية بزمن طويل .

إن [محمدًا] ﷺ كان لغزاً محيراً للغرب على الإطلاق ، وقد كانت صورة الشرق [الساحر] تختلط بصورة محمد . وتمثل لهم الإسلام الذي بشر به محمد [اسطورة] قاهرة تحتاج لكشف أسرارها ، لأن شخصية هذا اليتيم الفقير الذي انطلق كشمس متوهجة يطارد عروش أباطرة الرومان والفرس ، ويتدفّق أتباعه ككثبان الرمال المحرقة شرقاً وغرباً ، لا بد أن يكون [سرٌّ] ما وراء فتوحاتهم وزحفهم المقدس .

الشرق إذاً كما يقول [نرڤال][2] هو :

موطن الأحلام والإيهام . إلا أن هذه الصورة الأخاذة أو الصور التي ارتسمت في أذهان الغرب فيما بعد ، بل ومنذ زمن أغنية رولان La CHANSON de ROLAND ـ كان قد ساهم في تكوينها مؤرخو وكتاب أوربا . ففي تاريخ العالم تحدث رانكه 1881 ـ عن الاسلام واصفاً هزيمته أمام الشعوب الجرمانية ـ الرومانية .

وفي شذرات تاريخية تحدث [بير كهارت] عن الإسلام [كشيء] بائس ، عارٍ وتافهٍ ، وقد قام بمثل هذه العمليات الفكرية بمهارة وحماسة أبلغ بكثير من إسفالد اشبنغلر .

لقد تبدّت للغرب صورة [محمد] نبي الإسلام كخطر دائم يجب فهمه والاحتراز منه ، لأنه لغز من ألغاز الشرق المثير المملوء بالسحرة والشياطين والمجوس وعبدة النيران وربما آكلي لحوم البشر .!! وتضخمت هذه الصورة على مر الزمن بحيث أصبح [العرب] أو الشرق بصفة عامة هو ـ [الآخر] المثير الذي يجب أن يحسب حسابه ، وأن يلتزم المسيحيون الغربيون باليقظة فقد [أوشكت الأمبراطورية أن تمحي من الوجود تماماً على يد العرب ثلاث مرات على الأقل في سنة 668 والى حوالي 683 ـ م وفي 717/716 وكان الخطر الإسلامي ماثلاً على الدوام في مخيلة كل بيزنطي ، وكان مجرد وجود الدولة الاسلامية فضلاً عن الشعوب الأخرى الصعبة المراس المقيمة على الحدود الشمالية والغربية يضطر بيزنطة إلى التزام خطة التيقظ الدائم الأليم] .

إلا أن كراهية الغرب للنبيّ محمد ﷺ تزايدت على مرّ العصور ، والسبب في ذلك هو تلك العوامل النفسية والحقد الأعمى والتعصب المسيحيّ الذي نجد له أوضح الصور في كل ما كتبه بعض علماء الغرب وقساوسته .

[وكان كل مزيد من العلم بالنبي محمد يأتي به الزمان يفسده ويقف في سبيله تلك الكراهية المتزايدة التي كانت الحروب المستديمة تزيدها خرابًا ، هذا بارثولوميو الأوديسي OF Edessas يؤنب خصمه المسلم في القرن الثالث عشر قائلاً بعد حشر فقرات بذيئة : ـ قل لي بربك ماذا تعني بالنبوّة والرسالة والله يعلم أنكم ما كنتم تستطيعون أن تعرفوا لو لم يعلمكم المسيحي ألا أيها المخلوق الصّفيق الذي لا تعلوه حمرة خجل ، إنك تقول لي إن نبيكم ظلّ اثنين وثلاثين عاماً لا يتكلم كلام الأنبياء ، ولا هو كان أثناءها رسولاً ولا معلمًا ولا عرف شيئاً عن الله وأنه عرف بعد تلك الفترة] .

وأن تخرصات عجيبة يوردها يوليوجيوس القرطبي وهو من أوسع العلماء والقساوسة علمًا وأشدهم كراهية للنبي محمد وقد أورد هذا القسيس أكاذيب وأفكار عجيبة عن [السر في كراهية الاسلام للكلاب] إلا أن ما يلفت النظر أن هذا القسيس يعترف بكل صراحة أنه لم يبذل جهداً علمياً للتأكد من معلوماته !!

كما لا يقل عن ذلك تهافتاً وافحاشاً ما كتبه بطرس بلومان ، وخرافات وليام دنبا المتوفى 1520 م

حول ما كتبه عن محمد أو ما أسماه [ماهون] . ولم يكتف علماء الغرب من إنكار لنبوة محمد ورفضها جملة وتفصيلاً ، بل إنهم اعتبروا أنه من المستحيل الذي لا يقبل الجدل أن يظهر نبيّ من العرب . ثم إن خيالهم تمادى في تخرصات لا يمكن أن ترقى إلى مستوى العلم وامتلأت كتبهم بشتى الصور البشعة [لمحمد] قائد الإبل Cammel DRIVER ، ومحمد راعي الغنم ومحمد المصاب بالأمراض العصبيّة ، ومحمد الفقير البائس الذي أنقذه مال خديجة كما قال جون بيجوت غلوب باشا :

But the Widous mony rescud him from Poverty .

والذي تزوج الأرملة خديجة طمعاً في مالها ، ثم محمد الذي تستهويه النساء ، ومحمد الذي سرق الانجيل والتوراة ، وأخذ منها ولفق سياقاً لغوياً عربي اللغة أسماه [القرآن] ثم أخيراً [محمد] الرب الذي يتعبّده الناس ويصلّون له ، بل إننا نقرأ أيضاً أن الطفل الأوربي إبان العصر الوسيط عندما تغني له أمه أو مربيته وتريده أن ينام وتهز به [أرجوحته] تقص عليه أساطير عن الشرق وعن [محمد] الذي ادعى النبوة وهو من أرض النار واللصوص .

وفضلاً عما أظهره الغرب من إنكار النبوة بالنسبة [لمحمد] كان أدب الغرب في القرون الوسطى تستهويه فكرة محمد الرب [كذا . . !!] والحق أن هذه الفكرة لم تنبذ ولم تختف تماماً من عقول الغرب قبل منتصف القرن السابع عشر . عندما كان الكتاب المسرحيون لا يزالون يمثلون المسلمين أحياناً في صورة من يصلّون ويتعبّدون [لربّهم محمّد] وهذا ما تشير اليه أغنية رولاند CHANSON de ROLAND المشار اليها .

إلا أننا نرى بعد ذلك أن مجادلات فاشلة قد توالت لتضرم نيران الكراهية والحقد ضد الإسلام ونبيه وقد تجسد فيما بعد بما سمّى [بالهجوم المضاد] وهو الأمر الذي دفع بتوماس الإكويني المتوفي 1272 إلى وضع كتابه :

Somma Contra Gentiles حيث انتبه الإكويني إلى الصعوبات التي تعترضه ، ولا شك أن الحروب الصليبية قد يكون لها الفضل في إنشاء وتكوين صورة أصح وأوضح عن النبي [محمد] ولعل هذا يرجع الى الاحتكاك المباشر بمسلمي الشرق ، والشك في الصور الخادعة التي ارتسمت في ضمير أوربا وهي الصور التي قلت إنها جاءت نتيجة للكراهية الشديدة للإسلام ونبيّه وهي الصور المزيفة التي ساهم القساوسة في تشكيلها ونشرها بين المجتمعات الأوروبية .

ولا يستبعد أبداً أن اليهود وهم أشد عداءً [لمحمد] النبي الرسول هم الذين ساهموا في دسّ معلومات خاطئة مقصودة كصور مشوهة ، شكلت أو كونت ثقافة الغرب الدينية فيما بعد .

لأن اليهود أيضاً أول من خان المواثيق والعهود ونافقوا محمداً ، وعملوا على إفشال دعوته وتآمروا عليه في الخفاء مع سادة قريش لإحباط رسالته التي أفسدت وثنيّتهم ، فقد [زعم كتاب العصور الوسطى أن الخلفاء والمسلمين كانوا يقسمون دائمًا بمحمد والآلهة الآخرين وقصوا أن تانكرد TANCRED بعد فتح

بيت المقدس دخل مسجداً كان قد بني وكان هيكلا قديما فوجد صورة لمحمد مصنوعة من الفضة ثقيلة الوزن بحيث تحتاج لعدة رجال لنقلها من مكان آلى آخر ، وزعم FULCHER OF CHARTERS أنه سمع بوجود وثن على صورة محمد في كل مسجد وأكد جاكوب (يعقوب) JACCOP OF VISTY أن المسلمين حينما فتحوا بيت المقدس وضعوا في المسجد الذي أقاموه مكان الهيكل صورة لمحمد ومنعوا المسيحيين من دخول الهيكل . .][7] ص 51 .

إن الكتابات والنصوص التي تناولت شخصية محمد ﷺ خصوصاً إبان العصر الوسيط ، انطلقت في معظمها من خلفية واضحة وهي العداء المعلن ضد محمد كإنسان ومحمد باعتباره صاحب الدعوة ولقد كرست الأساطير التي حيكت حول شخصيته لتأخذ مسارها في توتر مأساوي صعوداً وهبوطاً لتشكل [عقلية] الأوربي الذي ورث تراكماته الثقافية عبر منحنى الزمن واعتبرها [مسلمات] لا يرقى إليها شك ، ولا ينقص من قيمتها التاريخية أو العقائدية أي جدل ، ورأت الكنيسة أن تعكس صورة حقيقية تعبّر عن وجهة نظرها تجاه هذا [الآخر] في ثقافته وتاريخه وعقيدته إذ تعتبر [الأنا المسيحية] نفسها الوريث الشرعي للثقافة العبرية الموسوية حسبما جاءت في العهد القديم ، بحيث شكل هـذا [الانشاء] أو البناء التأريخي وتأطر وفق أيديولوجية لاهوتية أسطورية محدّدة تجابه إن لم أقل تصادم هذا [الآخر] باعتباره الغول المفترس المتوحش الذي يرتكب الحماقات ويقضي على الحضارات ، ولكي يتم الشكل أو الصورة المطلوبة لتكوين الايديولوجية لا بد من تكريس [فتاوى] الكنيسة لإعطاء حق الشرعية لإعلان الحرب ضد [محمد !!] .

لقد جمع GUILBERT OF NAGENT لأول مرة مجموعة هائلة من الأساطير التي نسجت حول محمد [في العصور الوسطى ولكنه كان أميناً إلى حد معقول فذكر أنه اعتمد في جمع هذه الأساطير على الروايات التي يتناقلها لسان عن لسان آخر ، ولم يكن عند جيلبرت أي فكرة عن العصر الذي عاش فيه الرسول ولكنه كما قال عن نفسه كان مضطراً إلى مهاجمته باعتباره أحد رجال الكنيسة][8] .

ومما يؤكد أن رجال الكنيسة ومفكري الغرب وكتابه كانوا ينتحلون الصور ويلصقونها جزافاً بصورة محمد في أذهان الغرب ، ذلك الدور المشهود الذي قاموا به إبان الحروب الصليبية بدعوى تخليص [طريق الحاج] والأدب الذي صور المعارك الضارية [أو حرب الثغور] ساهم بشكل فعال في نمو الاسطورة وانتشارها وأصبحت بطولة الأسياد المسيحيين الذين يهزمون [المسلم] المتوحّش والكفرة ، صور هذه الأساطير والبطولات المنتحلة كانت تغذي الأدب الشعبي وتساهم في تكوين الرأي العام المعادي للمسلمين ولمحمد بالذات و [الأدب البيزنطي يعكس إلينا صورة جليّة لهذه الحالات ولا ريب أن حرب الثغور التي لم يكن ينطفىء لها مع الروم أوار قد تركت آثارها فيما سطر الغرب ـ تشهد بذلك رواية الملك عمر بن النعمان التي أضيفت فيما بعد إلى كتاب الف ليلة وليلة بيد أن هذه الشواهد ـ تبدو غير ذات بال اذا قورنت بصورة تلك الأحداث عينها كما انعكست في الملحمة EPIC الشعبية عند البيزنطيين][9] .

إذاً النبي (حامد) كما أسموه كان محور الاهتمام الشعبي وكان الخطر الذي ينظر إليه نظرة الحقد والحسد. إذ كيف (لمحمد) أن يسرق الأضواء ويأتي بعد المسيحية ويعتبر نفسه نبي الله الذي أكمل الرسالات التي جاءت قبله وصحح مسار تحريفها وما علق بها ، فقد شك الغرب في أميته ، وفي عدم اطلاعه على الانجيل ، وقد كان أول من عالج هذا الموضوع هو تيوفانز المعترف المتوفى 817 . وكتابه (حياة النبي) يعتبر مرجعاً استقى منه من تلاه كل المعلومات والصور المزيفة والمشوشة حول النبي يقول تيوفانز في كتابه هذا :

[في هذه السنة عام العالم 6122 المقابل 632 م توفي محمد حاكم العرب ونبيّهم بعد أن عين قريبه أبا بكر خليفة له وفي نفس الوقت كان الخوف مستولياً على الجميع وعند بداية ظهوره PARAUSIA ظن العبريون الضّالون أنه المسيح CHRISTOS الذي كانوا يتوقعون ظهوره لذلك انضم إليه بعض كبارهم وتقبلوا دينه وهجروا دين موسى الذي رأى الله جهرة THE OPTES والذين فعلوا ذلك كانت عدتهم عشرة وقد لازموه حتى لقي نهايته ثم عدلوا عن رأيهم عندما رأوه يأكل لحم الجمل [كذا !!] إذ أدركوا أنه ليس ما ظنوه أولاً فتحيّروا ولم يعرفوا ماذا يصنعون][10].

ثم إن تيوفانز نفسه يربط فقر [محمد] بزواجه لخديجة طمعاً في مالها وكما ادعى أصبح وكيلاً لها في مصر وفلسطين !! ويريد تيوفانز من رسم هذه الصورة البائسة ليقول في النهاية بكل صراحة : إن محمداً اتّصل بمسيحيين ويهود في القدس وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المقدسة !! ثم أصيب بعد ذلك بمرض عصبي !!

وكما أشرت أن تيوفانز ربط بين فقر محمد وزواجه بخديجة أم المؤمنين [وأدخل على قصة زواج محمد بخديجة ألواناً من التزييف فقد زعموا أن محمداً لجأ إلى الخداع ليتم الزواج ، فتذكر الروايات في وقاحة أن محمداً من أجل أن يقضي على تردد خديجة في الزواج من عبدها لجأ الى الحيلة والخديعة ليقنع أهل قبيلتها بالزواج[11] .

ثم إننا إذا تتبعنا الصور الحاقدة التي يكنها الغرب اتجاه محمد فسيواجهنا الاسفاف واللاموضوعية وحبك الأساطير التي لا يصدقها عقل فتارة يوردون أن محمداً استعان (بثور) من أجل تأكيد رسالته وصدق دعوته ومرة أخرى يستعين بجمل بدل الثور وأحياناً حمامة وديعة . محاولات على كل حال لم يصدقوها حتى هم أنفسهم . ففي كتاب هيلدربرت تقرأ [أن محمداً استعان في تأكيد صدق دعوته بثور درّبه سراً بحيث لم يعد يستطيع أحد أن يوجهه غيره وكان الثور يركع أمام محمد كلما أمره بذلك] ويقص كتاب آخرون نفس الخرافات لكنهم يجعلون بطلها [جملاً] يحمل كتاباً حول رقبته به آيات من القرآن الكريم وفي كتاب [أندريا داندلو ANDRES DANDOLO أن محمداً درب حمامة على أن تقف على كتفه وتلتقط حبات من القمح من أذنه وذهب البعض أن هذه الحمامة رسول مقدس . . الخ][12].

وهذه الأساطير تذكرنا بالمحاولة التي قام بها المستشرق سيل 1734 حين قال في نهاية القسم الثالث من

مقدمته المشهورة لترجمة القرآن : [وقد اعتاد الجاحظ أن يقول القرآن جسم ينقلب تارة رجلاً وتارة حيواناً ، ويبدو أن هذا يتفق مع ما يقوله الذين يؤكدون أن القرآن له وجهان ، وجه رجل ووجه حيوان . .](13) .

وهكذا يتضح أن حصيلة الفكر الأوربي وكتابات القرون الوسطى ـ حول شخصية محمد ـ تتسم بالجهل واللاموضوعية ولا تقرأ إلا من أجل تتبع نمو السياق الفكري الثقافي ومحاولة فهم الجذور الثقافية التي يعول عليها الغرب كخلفية وتراث ثقافي ، ولأن اسم [محمد] لم يعرف في الكتابات اللاتينية إذ يعتقد أولئك الكتاب اللاتينيون أن (صنماً) يعبد بهذا الإسم ، أضف إلى ذلك أن ترجمة القرآن ترجمة ركيكة ومزيفة ومقتضبة كانت هدفاً مقصوداً بحد ذاته لأنه يعتبر عملاً دعائياً وسلاحاً ضد المسلمين وضد [محمد] وحتى كارلايل الذي لم يعترف بقدرته على استيعاب القرآن وتذوق لغته السماوية ، اعتبره كلاماً ركيكاً ثقيل الوقع على النفس ، ومع ذلك فإن الدارس الأوربي لا بد له من (صبر) على هذا الأمر وهذا ما أشار إليه كارلايل في مقدمة كتاب الأبطال وعبادة البطل

رغم أن كارلايل يعتبر في نظر البعض أحد مادحي نبي الإسلام .

THE HEROWS AND HEROUWS WORSHIP

إلا أننا نرى من المفكرين الغربيين المحدثين من يجاري أخطاء من سبقوه ويؤيد أفكارهم دون فهم دقيق للغة القرآن وأسرارها ـ فمثلاً نلاحظ أن مونتجومري وات :

W - MONTGOMERY WATT

قد أورد فصلاً في كتابه [محمد] تحت عنوان : هل كان محمد نبياً ؟! حيث اعتقد وات أن محمداً شديد الإخلاص لعقيدته ، وأنه إذا اعتقد في شيء صالح [انفعلت نفسه بما حدث أو اعتقد فيصوغه في كلام قرآني ثم يعتقد هو نفسه أن هذا كلام الله أوحى اليه ، فيقدمه للناس على أنه كلام الله !! . .(14) .

إلا أن الصورة تتضح أكثر عندما يحاول بعض الدارسين الغربيين من الذين جاءوا متأخرين إذ يعزو أحدهم أن محمداً عندما كان يخلو بنفسه في غار وعندما هاجر بعد نزول الوحي عليه ـ إنما كان يفعل ذلك بدافع نفسي باعثه الفشل في الحياة أو الهروب من مآسيها ، فهذا مثلاً شتروتمان يفتري مدعياً : [في مسائل العقيدة تخلص محمد نفسه ـ من العذاب في سبيل الدين بالقول بأن عيسى لم يقتل ولم يصلب كما تخلص من العذاب في الحياة بالهجرة وبإباحة انكار العقيدة عند الضرورة] (15) .

ثم أننا نرى أيضاً أن جون بيجوت غلوب باشا قد جارى من سبقه في محاولة الدس والافتراء لأنه هو أيضاً كان ينظر إلى زواج محمد من خديجة أنه تمّ بدافع سدّ غائلة الفقر ليس إلا لأن [الأرملة انقذته من الفقر]

.(16)[but the Widous mony rescud him from Poverty]

الهوامش

(1) انظر الاستشراق ، ادوارد سعيد .

(2) الاستشراق ادوارد سعيد .

(3) الاستشراق ـ ادوارد سعيد .ص 219/218 .

(4) جوستاف جرونباوم ـ حضارة الاسلام ـ ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ص 51 .

(5) نفس المصدر ص 68 .

(6) نفس المصدر ص 70 .

(7) الحضارة الاسلامية ـ خوذاً بخش ـ ترجمة علي حسني الخربوطلي دار الكتب الحديثة ـ القاهرة 1960 ص 50 .

(8) نفس المصدر ص 51 .

(9) حضارة الاسلام ـ جوستاف جرونباوم ـ ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ص 51 .

(10) نفس المصدر ص 66 .

(11) الحضارة الاسلامية ـ خوذا بخش ـ ترجمة علي حسني الخربوطلي دار الكتب الحديثة ـ 1960 ص51 .

(12) نفس المصدر ص 54 .

(13) التراث اليوناني ـ دراسات لكبار المستشرقين ـ د عبد الرحمن بدوي القاهرة ـ مطبعة النهضة ـ 1965 .

(14) الإسلام والمستشرقون ، د عبد الجليل شلبي ـ مطبوعات الشعب القاهرة ـ ص 257 .

(15) دائرة المعارف الاسلامية ـ ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرين ـ رتر ـ القاهرة 1933 ـ المجلد الخامس ـ ص 257 .

(16) J. B. Glob. Basha. Beace in The Holy Land. LONDON. 1971. P. 175.